وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة مُحَمَّد خيضر – بسكرة –
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية
قسم العلوم الاجتماعية
شعبة: الانثروبولوجيا

مطبـــــــــــوعـة:

مدخل الى الانثروبولوجيا

موجهة الى طلبة السنة الاولى جذع مشترك علوم اجتماعية

من اعداد:

الدكتور: **الطيب العماري**

السنة الجامعية *2023 – 2024*

المحور السابع: الدراسات الانثروبولوجية في الوطن العربي و الجزائر

بعد هذا العرض المسهب لنشأة الأنثروبولوجيا وتطوّرها، وفروعها ومجالات دراستها، ألا يحقّ لنا أن نتساءل : أين هو المجتمع العربي من الدراسات الأنثروبولوجية، بل أين الأنثربولوجيا العربية ذاتها، إذا كان ثمّة أنثروبولوجيا عربية خاصة بطبيعة الأمّة العربية وثقافتها التاريخية / الحضارية؟

قد تكون الإجابة عن هذا السؤال من الصعوبة بمكان، حيث لا توجد معطيات جاهزة وكاملة لهكذا إجابة، على الرغم من وجود محاولات لأنثروبولوجيا عربية، سواء في الماضي أو في الحاضر. وهذا ما سنحاول تبيانه والوصول من خلاله إلى تصوّر – إن أمكن – لأنثروبولوجيا عربية معاصرة .

إنّ كون الأنثروبولوجيا كعلم له خصوصيته وطرائقه، غربي المنشأ والتطوّر، فهذا لا يعني تجاهل أو إنكار، أنّ العرب كانوا أسبق من الغرب (الأوروبيين) في دراسة الثقافات الأخرى، وصفاً ومقارنة، وفي وضع المبادىء والأسس المنهجيّة للبحث والدراسة في العلوم الاجتماعية والطبيعيّة(وهذا ما سبق التطرق اليه في المحاور السابقة).

إنّ التوقّف قليلاً عند التصويرات التي تمّ تشييدها مثلاً، عن الثقافة والمجتمع العربي في الفكر الأنثروبولوجي، ولا سيّما تلك التصويرات الناتجة عن علاقة الأنثروبولوجيا بالمجتمعات العربية، لهو أمر على غاية من الأهمية.

ولذلك، فإذا أردنا القيام بمحاولة تأريخ لعلاقة الفكر الأنثروبولوجي الغربي، بالمجتمع والثقافة في العالم العربي، فإنّ إيفانز بريتشارد وإرنست غيلنر، سيتصدّران ليس فقط قائمة عدد من الأنثروبولوجيين الذين تعاملوا مع ثقافات ومجتمعات العالم العربي والإسلامي، وإنّما أيضاً لأنّ تجربة الاثنين معاً تعبّر عن أحد أشكال تجليات هذه العلاقة، في جانبها الأوروبي على الأقل.

فقد حاول كلّ من بريتشارد و غيلنر، ومن واقع انتمائهما للثقافة الأوربية المعاصرة، أي باعتبارهما مثقفين قبل أن يكونا أكاديميين، فهم هذا الواقع الاجتماعي والثقافي ذي الخاصية العربية الإسلامية، هذا الواقع الذي يقع في مقابل الغرب الثقافي والاجتماعي. وكان الهاجس الأهم الذي يشكّل صلب اهتمام غيلنر في هذا الجانب ، ليس التفصيلات الأثنوغرافية المميّزة للثقافة العربية والمجتمع العربي، وإنّما هي

البحث في الآليات والقوانين المنطقية، التي يعمل وفقها النظام الاجتماعي في هذه البقعة من العالم[1].

هذا من جهة، أمّا من الجهة الأخرى، فقد عزا معظم الباحثين العرب عدم الترحيب بالأنثروبولوجيا وانتشارها في العالم العربي، إلى سببين أساسيين :

أولهما : عدم تقبّل فكرة التطوّر الحيوي عند الإنسان، بالنظر لتعارضها مع الفكر الديني وتفسيراته التي تؤكّد أنّ الإنسان مخلوق من عمل الله، وليس نتاج حلقة تطوّرية ذات أصل حيواني .ولكن ثمّة بعض المفكّرين العرب من دعا إلى التوفيق بين الفكرتين، والأخذ منهما ما يفيد العلم.

فبينما يقول الباحث الجيولوجي الدكتور / عبد الله نصيف / في كتاب " العلوم الاجتماعية والطبيعيّة " : ليس ثمّة تعارض – مطلقاً–بين الإيمان ومعرفة الإنسان عن الكون، واستخدامه هذه المعرفة للخير .. نجد أنّ المفكّر / زكي نجيب محمود / يقول في كتابه " هذا العصر وثقافته ": ليست الشطارة في تخريج المعاني التي تجعلنا نتصوّر أنّ ما جاء به الدين، هو نفسه ما يجيء به العلم في عصرنا .. وإنّما المهارة كلّ المهارة، هي في أن تبصرني بالطريق الذي أعرف منه كيف آخذ من الدين حافزاً، يحرّك الإرادة إلى (صنع) علم جديد أقدّمه لنفسي وللإنسانية جمعاء.

وثانيهما : ارتباط نشأة الأنثربولوجيا وبداياتها التاريخية بالاستعمار، حيث كانت الدراسات تتمّ على المجتمعات البدائية والمتخلّفة، بهدف معرفة بنيتها التركيبية وطبيعتها الثقافية، ممّا يسهّل استعمارها، في الوقت الذي كان فيه المجتمع العربي يعاني من الاحتلال والاستعمار، ويسعى للتحرّر والتقدّم .

فكما ارتبطت الجغرافيا مثلاً، بمشاريع علمية كانت تهدف إلى تحقيق كشوفات جديدة تتعلّق بتحديد طبيعة الكرة الأرضية، أي التخوم اليابسة منها وأقاليمها وبيئاتها والجغرافية، وكذلك توزيع البحار والمحيطات، وكذلك ارتبطت الأنثروبولوجيا واهتماماتها (البيولوجية والثقافية والاجتماعية) بمشاريع استكمال معارفها حول الإنسان، وبيئاته الاجتماعية والثقافية، أي بتلك المشاريع الأنثروبولوجية التي بدأت في الغرب، والتي آن الأوان لاستكمالها خارج أوروبا. وقد أتت ظروف الاستعمار في القرن التاسع عشر، لتمهّد الطريق لتلك المشاريع العلمية، وبذلك ارتبط تاريخ الفكر الجغرافي والأنثربولوجي بالخبرة

[1] عيسى الشماس، مرجع سابق ، ص167.

الاستعمارية، وبأقاليم ومجتمعات وثقافات غير غربية.

وكان أن أدّت هذه العقلية الاختزالية والروح المتحاملة، إلى سيادة ميل هائل نحو تسييس المعارف والعلوم، وكذلك المؤسّسات والعلاقات الناتجة عنها. وكان من أبرز ضحايا تلك العلوم : الجغرافيا والأنثروبولوجيا. وإذا كانت الجغرافيا قد سلمت بجلدها، لأسباب تعود مثلاً إلى ترسّخ هذا العلم في الأكاديميات العربية، منذ الأربعينات من القرن العشرين، وإلى إسهام العرب المسلمين، البارز في هذا العلم منذ القدم، الأمر الذي جعل العرب المعاصرين أكثر ألفة معه، فإنّ الأنثروبولوجيا لم تحظَ بهذا القبول، حيث كان نصيب الأنثروبولوجيين العرب الأوائل، أقلّ بكثير – إن لم يكن معدوماً- عند مجاراتهم بالأوروبيين.

وهكذا تمّ التعاطي مع أي اهتمام أوروبي أو غربي، بالمجتمعات العربية أو الإسلامية وثقافاتها، على أنّه يقع في دائرة الأطماع الاستعمارية أو التآمر على العرب والإسلام. وأصبح كلّ إنسان غربي (يبدي شيئاً من الاهتمام بهذه الموضوعات) موضع شبهة وريبة في العالم العربي.

وعلى الرغم من اتساع الدراسات الأنثربولوجية لتشمل المجتمعات البشرية المختلفة، سواء في تكوينها أو في درجة تطوّرها، فما زالت ثمّة رواسب تعوّق اعتمادها كعلم يبحث في مشكلات المجتمع العربي وإيجاد الحلول المناسبة لها، ولا سيّما القضايا الاجتماعية والثقافية والاقتصادية[2].

وهنا يحق لنا ان نتسال من جديد : اذا كان الاستعمار استفاد من الدراسات الانثروبولوجية التي مولها وطورها لتصبح اداة قوية في فهم الانسان والمجتمعات في المناطق التي احتلها ، ومكنته هذه المعرفة العلمية من الاستمرار في حكم هذه الشعوب قرونا من الزمن و مازال .اليس اجدر بنا اليوم و في ظل هذه الاوضاع المتدهورة في مختلف المجالات ، وفي ظل مظاهر الفشل في الميادين والسياسات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وأمام التحديات الثقافية الكبرى التى تفرضها العولمة بكل ما تحمله من مخاطر قد تنسف بالأسرة والمجتمع وبل والأمة ، اليس من الضروري ان نولي الاهتمام بهذا الانسان الذي يعتبر اساس كل عمليات التغيير الايجابي ؟ انه بالتأكيد وبدون فهم عميق للمشكلات الفكرية لمجتمعاتنا و

[2] عيسى الشماس ، المرجع السابق ، ص169- 170.

فهم ذهنيات الانسان فان تحقيق النهضة التي تنشدها الشعوب العربية يبقى مجرد وهم .

حضور محتشم للأنثروبولوجيا في الجامعات العربية:

في الأردن :

شكل إنشاء قسم الأنثروبولوجيا في العام *1986* خطوة رائدة على مستوى الأردن والمنطقة العربية عموما التي ما برحت تفتقر إلى وقت قريب لمؤسسات أكاديمية تهتم أساسا بالأبحاث الاجتماعية والثقافية.

إن اهتمام كثير من دول المنطقة العربية الآن بإنشاء أقسام للأنثروبولوجيا يثبت صواب وجهة النظر التي دعت الى تأسيس قسم الأنثروبولوجيا في الجامعة في الثمانينات من القرن العشرين.تهتم الأنثروبولوجيا بشكل أساسي بدراسة الإنسان بشكل شمولي سواء من حيث هو كائن فيزيقي تطور عبر حقب زمنية مختلفة أو من حيث هو كائن ثقافي واجتماعي لا يمكن أن يحقق ذاته وشروط وجوده إلا من خلال انتمائه وتعاونه وتفاعله الدائم مع الجماعة.

وبذلك فإن الانثروبولوجيا تتخذ من الإنسان والثقافة موضوعا محدد لدراستها. وعلى المستوى المنهجي، تتميز الأنثروبولوجيا بتركيزها على دراسة الثقافة والإنسان من خلال البحث الميداني والتجريبي إضافة إلى استخدام الأطر النظرية التفسيرية.لقد تمكن قسم الأنثروبولوجيا ومنذ تأسيسه من مراكمة العديد من الإنجازات إن كان على مستوى إعداد الكوادر الأكاديمية القادرة على القيام بالدراسات والأبحاث الميدانية في المجال الثقافي والاجتماعي أو على مستوى مراكمة الأبحاث والدراسات المتعلقة بالمجتمع والثقافة الأردنيين أو على مستوى المشاريع البحثية والتطبيقية التي جرى إنجازها بالكامل من قبل القسم أو من خلال التعاون مع بعض المؤسسات الوطنية والدولية.

وعبر تاريخه القصير نسبيا استطاع القسم إن ينجز العديد من المشاريع من بينها، مشروع توثيق التاريخ الاجتماعي لوادي الأردن، ومشروع العائلة والقبيلة في الشرق الأوسط وكذلك مشروع تطوير البادية الشمالية في الأردن. وعلاوة على ذلك، ثمة مشاريع نفذها أعضاء القسم بالتعاون مع مؤسسات محلية وعربية ودولية هدفت في مجملها إلى مراكمة المعرفة المتحققة عن المجتمع الأردني.يشتمل القسم الآن على ثلاثة برامج فرعية.

فهنالك برنامج في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، وآخر في الأنثروبولوجيا العضوية وثالث في مجال السياحة. ففي مجال الأثنروبولوجيا يتم منح درجتي البكالوريوس وكذلك الماجستير، أما في برنامج السياحة فيقتصر الأمر على منح درجة الماجستير. ويضم القسم وحدة للمختبرات لدراسة المخلفات العظمية ومعالجتها.

تميز القسم ومنذ تأسيسه بنسجه للكثير من علاقات التعاون مع المؤسسات الأكاديمية والبحثية في مختلف دول العالم سواء على مستوى المشاريع البحثية أو على مستوى تبادل الخبرات التدريسية وتبادل زيارات وإقامات الطلاب العلمية. كذلك يرتبط القسم بالعديد من اتفاقيات التعاون مع العديد من الجامعات ومراكز الأبحاث في العالم.

الظروفه البيئية والاجتماعية والسياسية والثقافية والقيمية

في العراق:

مما تجدر الإشارة إليه إن عهدَ الانثروبولوجيا في العراق لم يبدأ الا قبل سنواتٍ عدة. وهذا ناتجٌ عن إنعزال العراق وتخلفهِ عن الركب الذي سارت بهِ أغلب الدول العربية، على الرغم من إنها متأخرة كثيراً ، هذا إذا ما قورنت بالدول الغربية.

بدأت جامعة بغداد بأدخال ألانثروبولوجيا لها.حيث ينشطر قسم علم الإجتماع في جامعة بغداد – إبتداءاً من المرحلة الثالثة الى ثلاث فروع هي : علم الإجتماع- والخدمة الإجتماعيّة — ومن ثم أضيف لها فرع ألانثروبولوجيا. وقد إبتدأ هذا عام 1988.

وفي عام *(2003- 2004)* أي بعد سقوط النظام السابق، تم إفتتاح قسم ألانثروبولوجيا التطبيقية في الجامعة المستنصرية في بغداد كقسم مُستقل وهو القسم الوحيد في العراق الذي يحمل هذا الاسم.

إننا نأمل أن يتم إعلاء شأن الانثروبولوجيا والإهتمام بها كسائر العلوم الإنسانية الاخرى.وهذا لا يتم الا بفتح المجال الواسع لها في جامعاتنا وتشجيع الدراسات الميدانية التي تجري وفقاً لمتطلبات هذا العلم.

في تونس

يسند المعهد العالي للعلوم الإنسانية بتونس جامعة المنار شهادة الماجيستير في الأنثروبولوجيا.

الجمعية التونسية لعلم الأنثروبولوجيا هي جمعية علمية مقرها الاجتماعي كلية الصيدلة بالمنستير و هدفها التعريف بعلم الأنثروبولوجيا, علم الإناسة, خاصة في المجال البيولوجي وذلك من خلال تنظيم أنشطة علمية تثقيفية : محاضرات و ندوات و مؤتمرات على النطاق الوطني و الدولي ورحلات دراسية.

تاريخ وعدد التأشيرة : تكونت الجمعية التونسية لعلم الأنثروبولوجيا رسميا بموجب وصل إيداع رقم 330بتاريخ 2000 /7 /26 مسلم من السيد والي المنستير و وقع الإعلان عن تكوينها في الرائد الرسمي للجمهورية التونسية عدد 8 صفحة 114 بتاريخ2001 /1 /17

في الجزائر:

يوضح فيليب لوكا وجون كلود فاتان مؤلفا كتاب «جزائر الأنثروبولوجيين» وعمل ينتقدان من خلاله السوسيولوجيا الكولونيالية وقد تمت ترجمته من طرف وزارة المجاهدين بمناسبة الذكرى الأربعين لاندلا ع ثورة التحرير الجزائرية، أن ثمة جزائر شحذها علماء الأنثروبولوجيا، إنها جزائر الأوهام والأفكار التي حكم عليها التاريخ بالبطلان...إن جزائر علماء الأنثروبولوجيا ليس حتما مقضيا... إن الجزائر التي رميت بالتوحش تناضل من أجل إزالة هذا الوهم...إن تعرية الإفتراضات الإيديولوجية المسبقة التي ترمي الجزائر بالتوحش لا تكفي لتحرير المعرفة (معرفة الذات) التي تكافح الجزائر من أجلها.

لقد ساد اعتقاد أن الجزائر لا وجود لها إلا في مخيلة الغازي، بمعنى أن الجزائر لا توجد إلا بوصفها قطرا تركيا جديرا بأن يستولى عليه، وما دام الجيش الإستعماري بحاجة إلى معرفة العدو الذي يحارب، وجب معرفة المناطق التي أبدت مقاومة شديدة معرفة جمة، حينئذ أخذت الدراسات الإثنوغرافية العسكرية في التطور والتنامي. فبعد أن حصل الإحتلال كما ينبغي بدا الخصم قابلا للمعاينة فتحولت الأنثروبولوجيا إلى أنثروبولوجيا تكتيكية. ولما كان العسكريون متأثرين بالطقس والمناظر، فإنهم عنوا

بانطباعاتهم خاصة، وبتعاظم الإحتلال تعاظمت معه الدراسات والأوصاف الإثنوغرافية، مثل مؤلف النقيب الهندسي "أبينال" الذي يروي فيه هدم مدن مستغانم ومزافران سنة *1840* إلى المقتصد العام "وولف" الذي نشر في *1886* ذكرياته حول غزواته لمدينة قسنطينة، والقائمة طويلة علما ان هناك محاولات معدودة أنجزت لتصاحب العمليات العسكرية وتشفعها ببعض المعطيات الإنسانية.

بعد مرور عقد من الزمن على نزول الجيوش، وبعد أن تم اختيار توسع عسكري بعينه، أقدمت الحكومة على تحر *Enquête* واسع النطاق، وقد تم جمع معطيات في قر ابة أربعين مجلدا بين 1844 و 1867، وقد اضطلع العسكريون بنصيبهم في هذا التحري، وكان على رأسهم "كاريت وبوليسيي *Carette et Pelissier* "، وقد استدعيت التخصصات والعلوم كالتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبية والفيزيائية والحفريات لكي توفر نظرة أمينة ما أمكن عن الآخر أي هذا العربي أو هذا البربري بما أنهم ينكرون عليه أية تسمية أخرى.

إن الاكتشاف العلمي للجزائر هو إذن قبل كل شئ متوقف على ألاحتلال وقد شرع فيه حقا بواسطة العسكريين وتعاظم في الميدان وفق وتيرتهم، بحيث يمكن أن نقتفي مع التفاوت الخفيف والضروري للتدوين والانطباع المراحل المتعقبة للاستكشاف هذا، خصصت السنوات العشرة الأولى للجزائر العاصمة والمدن المتواجدة بضواحيها القريبة، وبعد الإستلاء على قسنطينة في حدود *1840* والقضاء على مقاومة الأمير عيد القادر أصبح الداخل يستأثر بالإهتمام وخاصة التل، حينئذ اكتشف المستعمر ما كان يبحث عنه طوال سنين عديدة: الفضاءات الجديدة المجهولة، الريفيين، أهل المدن، البدو الرحل، ومدن الداخل والحواضر ذات الأهمية، وكذلك الدواوير والخيام، والأكواخ وطرق عيش الأهالي ووجود جديد لم يخطر على بال. وبذلك أصبح التيطري، منطقة الجزائر الجبلية، الميدان المفضل للمستكشفين.

كان بإمكان مسخ الشخصية في صلب أنثروبولوجية ما هو ثانوي الممارسة من قبل من هب ودب أن تنحو منحى آخر، وقد انبجست الحجة من وجود اتجاه ثالث كان وعاؤه الأنثروبولوجيا الجامعية التي كانت أنذاك في مقتبل عمرها، حينما كان [إميل ماسكري *Emile Masqueray]* الأستاذ بالمدرسة العليا للآداب بالجزائر، ينشر في مجلة" *Revue politique et littéraire*" مابين 1876 و1877 حكايات وقصصا عن أسفاره في القبائل، لم يلق بأي حكم قط على مجموع الإنتاج الذي

أعلن عنه، كما أن مقلاته تتسم بخصيصة قوامها طرح العلاقة بين هذه المخازن للغلال – الحصون*Greniers-forteresses* والمجتمعات التي تولت بناءها وبين الضرورة الإجتماعية والوظيفة الإقتصادية والمنطق الإستراتيجي، ليس ثمة من أمر ثوري، بيد أن كتابه *La formation des cités chez les populations sédentaires de l'Algérie(Kabyles du Djurdjura, Chaouias de l'Aurès, Bei Mezâb*) اكتشف وسائل أكثر اتساعا ومشروعا تحليليا حقيقيا، فكتابه هذا لم يؤلفه إلا بعد سلسة من الإقامات في الأماكن نفسها، ولم تتم المقارنة إلا بعد الاستئناس المثابر بالمجموعات التي عني بها، إلا أن المسعى الذي قام به ظل معزولا، ذلك أن السبيل الذي سلكه قد أدى إلى دحض الصورة الرسمية التي سعى النظام الإستعماري إلى إشاعتها.

بعد استقلال الجزائر وكما هو الحال في معظم الدول العربية فقد تم استبعاد الانثروبولوجيا من المقررات الدراسية في المستويات التعليمية المختلفة وخاصة المقررات الجامعية ، لنفس الاسباب والذهنيات باعتبارها "علماً استعمارياً" وأن الانثروبولوجيين الفرنسيين الذين صاحبوا الحملة الاستعمارية ساهموا بدراساتهم للمجتمع والثقافة الجزائريين في عملية الاستعمار وسهّلوها. فتقرر اذن عدم تدريس الأنثروبولوجيا ، وعدم الاعتراف بها والعمل على استبعادها من دائرة المعارف الاجتماعية والإنسانية. بل وصل الأمر إلى نعت كل باحث مهتم بهذا العلم بأنه من أتباع الايديولوجيا الكولونيالية. واستمر هذا الوضع مدة من الزمن واستمر معه نضال بعض الباحثين المهتمين بالانثروبولوجيا، إلى غاية الثمانينيات، مع ما بدأ يعرفه المجتمع الجزائري من حراك سياسي وثقافي جديد، فشهدت هذه المرحلة عودة الأنثروبولوجيا إلى الواجهة بطريقة خجولة. ولكن إصرار الباحثين أعطى لهذا العلم المكانة الأساسية واللائقة به، ليعود كفرع معرفي قائم بذاته حيث أُدرج في بعض الجامعات كتخصص أساسي مثل جامعة تلمسان، حيث فُتح لأول مرة في تاريخ الجزائر معهد وطني يتكفل بدراسة التراث الشعبي وتدريس الأنثروبولوجيا، هو "المعهد الوطني للتعليم العالي للثقافة الشعبية" وكان ذلك في العام 1984. كما عرفت بعض المراكز البحثية نشاطا انثروبولوجيا مميزا، مثل "المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية "بوهران، و "المركز الوطني للبحث في ما قبل التاريخ والأنثروبولوجيا "بالجزائر العاصمة. ومهما يكن من أمر فقد عادت الأنثروبولوجيا وعاد معها التكوين الأصيل للباحثين الذين

تكفلوا بموضوع الثقافة والمجتمع الجزائريين والإنسان الجزائري وثقافته المادية والمعنوية والسلوكية. كما عاد أصحاب القرار الى الوعي المعرفي والسياسي بأن الأنثروبولوجيا كاختصاص معرفي، يساهم في التنمية وفي المعرفة، وفي تكفل الإنسان الجزائري بعدد من قضاياه الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعقائدية[3].وفي هذا الاطار جاءت الارادة السياسية بتسهيل ادراج فرع الانثروبولوجيا ضمن فروع وتخصصات العلوم الاجتماعية في الجامعات الجزائرية لتساهم بتكوين وتخرج العديد من الدفعات من الباحثين في مستوى الليسانس والماستر من جامعات تبسة وخنشلة وبسكرة وبشار وتيارت و ورقلة ومستغانم وتلمسان وغيرها ، كما تم فتح العديد من عروض التكوين في مستوى الدكتوراه لتكون بذلك الجزائر من الدول العربية الرائدة في التكوين في تخصصات الانثروبولوجيا وتساهم بذلك في تعزيز قدرات البحث في علوم الانسان والمجتمع وتفتح افاق واسعة امام الباحثين الانثروبولوجيين للمساهمة بابحاثهم في احداث النهضة الشاملة في ميادين العلوم والتنمية في مختلف المجالات.

[3] محمد سعيدي :**الأنثروبولوجيا والتراث الشعبي في الجزائر**: تاريخ ومسارات ، www.assafirarabi.com le 03/12/2015